الفصل السادس

محور الدعوة

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

لقد جاء الأمر بالدعوة صريحا وبخطاب موجه للفرد المؤمن ولكنه جاء مقرونا بما يشبه التفصيل فى بيان وسائل الدعوة وذلك فى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وجاء نص آخر منبها إلى اللين مع المدعوين وبيان أن الفظاظة والغلظة تؤدى إلى عكس مقصود الداعية وذلك فى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وجاء نص آخر ينهى عن سب الذين أشركوا مبينا ما يترتب عليه، ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وفى السنة النبوية أمر بالدعوة يكاد يعين الأمر بالدعوة على جميع المسلمين وهو قوله ﷺ: «بلغوا عنى ولو آية» ولكن تعددت النصوص السنية فتبينت وسائل الدعوة خاصة اللين واليسر ناهيك عن ضد ذلك، نجد هذا مثلا فى قوله ﷺ: «إنما بعثتم هداة لا جباة» وقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا» وهكذا.

رغم كل ذلك نجد بعض المسلمين يحملهم الحماس للدعوة على عكس أدب الدعوة فيأخذون الناس بالشدة ويلفظون عليهم فى العبادة ولا تنبههم إلى خطئهم نتائج وسائلهم التى تأتى تماما حسب ما حذرت منه النصوص آنفة الذكر، تنفر المدعوين بدل أن تكسبهم لصالح الدعوة. وأكثر من ذلك فإن البعض يمارس الدعوة عن طريق العنف والإكراه كأنما يريد أن يدعم فرية انتشار الإسلام بحد السيف، يسمى ذلك جهاداً ويفهم الجهاد ابتداء بالقتال ومحاولة إكراه الآخر على اعتناق الدين، لذلك يلزمنا أن نراجع وسائل وأساليب الدعوة لضبطها بضوابطها التى جاءت فى الكتاب والسنة اقتفاء لأثر المصطفى ﷺ.

الخاتمة

هكذا فإننا نرى أن أساليب الدعوة ينبغى أن تنأى عن العنف وتركز على التوعية والتربية والتعبئة مستخدمة فى ذلك وسائل الإعلام ومنابر الدعوة، منضبطة بأساليبها التى بينتها نصوص الكتاب والسنة على أن تنطلق من فهم شامل للإسلام كعقيدة وعبادات ومنهج حياة.

أساليب الدعوة والتغيير الاجتماعى

فى ظروف معينة، وأمام زحف التتار على ديار المسلمين اجتهد بعض الفقهاء ورأوا أن حماية بيضة الإسلام توجب تقديس المسئولية السياسية، وعلى نفس النمط اجتهد الشيخ أبو الأعلى المودودى[1] وصاغ مفهوم الحاكمية لله على نحو مشابه لمقولة الإمرة لله. إن الذين رأوا باجتهاد معاصر أن يعطوا الإمرة أو القيادة السياسية قدسية تناهز قدسية العقائد والعبادات مهدوا للتطرف الإسلامى المعاصر الذى جعل اجتهاد أصحابه السياسى هو موقف الأمة كل الأمة ونفى رأى الآخرين باعتباره كفرا وخروجا عن ملة الإسلام. هذا الاعتقاد هو الذى مهد للتيارات الاحتجاجية المتطرفة المعاصرة، عبر تكريسه للاستبداد وفتح باب المظالم السياسية والاجتماعية.

نعم إن المسلمين فى محنة ويواجهون اضطهادا عظيما وإذلالا على يد الهيمنة الدولية وإسرائيل. إن أصحاب هذا الاتجاه اعتبروا أنفسهم مبعوثى العناية الإلهية واستحلوا لأنفسهم العمل لاستلام السلطة بالقوة والانفراد بها واستحلوا لأنفسهم استخدام أساليب العنف العشوائى الذى يزهق الأرواح البريئة ويدمر الأملاك فى سبيل تحقيق أهدافهم.

الإمرة لا تكون فى شريعة الإسلام إلا عن طريق: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] والعمل من أجل الأهداف مهما عظمت لا يكون إلا بموجب ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. و﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:

٢١، ٢٢] وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]. والقتال فى الإسلام له ضوابطه وهى: الدفاع عن النفس وعن حرية الدعوة. إن ربط الإسلام بالسلطة السياسية المستبدة، وربط العمل الإسلامى بأساليب العنف العشوائى جلب للإسلام ضررا كبيرا وأعطى أعداءه حجة قوية للنيل من ديباجته الوضاءة.

إن علينا معشر أهل القبلة أن نرفض أية عملية استيلاء على السلطة بالقوة الغاشمة لا سيما الانقلاب العسكرى. وأن نرفض أية دولة تقوم على أساس بوليسى يقهر الناس. وأن نرفض أية صلة بين الدعوة للإسلام والعنف العشوائى. وأن نعتبر الاستيلاء على السلطة باسم الإسلام ترهيبا بعيدا عن مقاصد الشريعة، كما نعتبر أية دولة بوليسية قاهرة خارجة على مقاصد الشريعة.

لقد صار نهج الذين ربطوا الإسلام بالاستبداد الغاشم وهم فى السلطة، والذين انتهجوا العنف العشوائى كأسلوب لمعارضة النظم الشرعية، وإن كانت شرعيتها ظنية، سبة على الإسلام، ووسيلة للإساءة إليه، ومخلب قط للتدخل الأجنبى، لذلك وجب علينا أن نتبرأ منهم وندين نهجهم . . هذا طبعا لا ينطبق على الذين يتخذون العنف أسلوبا لمقاومة الاحتلال الأجنبى، فهم إنما يردون على العدوان بمثله: ﴿فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

إن أسلوب الدعوة المشروع هو بالتى هى أحسن، والتغيير المشروع هو بالتعبئة الشعبية وبالعمل المدنى الخدمى وبالترجيح الديمقراطى لأن أساليب العنف ضد النظم المؤسسة بشرعية ذات قبول واسع يؤدى لنتائج عكسية، لا سيما العنف العشوائى والانقلابات العسكرية التى ما بنت قصرا إلا هدمت مصرا وما ادعت عمل إصلاح إلا أتت أضعاف أضعافه من الإخفاق.

التصوف

التطلع للاندماج فى خالق الوجود، والترفع عن الانغماس فى مباهج الوجود، نزعتان عرفهما الفكر الدينى والفكر الفلسفى، وهما أساس «المستسزم» فى الأديان والاستشراق فى الفلسفات، والتصوف فى الإسلام.

كل مقولات الإسلاميين تعود إلى مراجع فى النصوص المقدسة، وإلى الظروف المحيطة بالمسلمين. النصوص الإسلامية الموحية بالتصوف كثيرة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمنُوا برسُوله يُؤْتكُمْ كفلَيْن من رَّحْمته ويَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ به ويَغْفر لَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] وقال فى حديث قدسى رواه البخارى[٢]: «مَنْ عَادَى لى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحُرْب وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدى بشَىْء أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه وَمَا يَزَالُ عَبْدى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بالنَّوَافل حَتَّى أحبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ به وَبَصَرَهُ الَّذى يُبْصرُ به وَيَدَهُ الَّتى يَبْطشُ بهَا وَرجْلَهُ الَّتى يَمْشى بهَا وَإِنْ سَألَنى لأعْطينَّهُ وَلَئن اسْتَعَاذَنى لأعيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَىْء أَنَا فَاعلَهُ تَرَدُّدى عَنْ نَفْس المؤْمن يكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أكْرَهُ مَسَاءلَتَهُ» .

أما الظروف الاجتماعية والتاريخية التى دفعت نحو التصوف فكثيرة أهمها أن الدول التاريخية التى حكمت المسلمين بعد الصدر الأول تشبهت بدول الأكاسرة والقياصرة فى كثير من مناهجها، مغفلة كثيرا من الهداية الروحية والخلقية كما أن النظام الاقتصادى الذى واكبها اتسم بصفات رأسمالية أنانية خالية من رحمات العدالة الاجتماعية.

هذا الجفاف والتصحر الروحى والخلقى أوجد الحاجة الماسة لمنظومة غيبية تشبع التطلعات الروحية والغايات المثالية.

كذلك اندفعت الاجتهادات الفقهية لدى كثير من المجتهدين فى اتجاهات ركزت على الشعائر وعلى صياغة الأحكام فغلبت عليها شكليات التقنين على حساب النوايا والجذور الروحية.

الحكم القائم على الاستبداد السلطانى وسع المسافة بين الحكام والرعية. والاجتهاد الفقهى القائم على الشعائر والأحكام وسع المسافة بين الفقهاء والمفتين من جانب والجمهور العريض.

نشط التصوف لسد هذه الثغرات، واستطاعت الطرق الصوفية أن توفر للمريدين واحات للإشباع الروحى والتربوى فى المجتمعات الإسلامية. كما استطاعت فى وقت انشغال الدول الإسلامية بأولويات السلطة والمال، أن تعنى بالدعوة للإسلام ونشره فى كثير من بقاع الأرض فى آسيا وأفريقيا وأوروبا.

استطاعت الطرق الصوفية أن توفر للمجتمعات الإسلامية مواعين انتماء حميم ومباشر، وكسبت للإسلام أراض جديدة، وفى ظروف التغلب الأجنبى ابتدعت وسائل تعايش سلمى معه، وفى الظروف التى جعلت المجتمع المسلم أسيرا فى قبضة نظام سياسى مجاهر بالإلحاد كالاتحاد السوفيتى (سابقا) وفرت للمسلمين وسائل بيات شتوى أبقى على العقيدة حية فى شكل خافت.

ينبغى لنا ونحن نتطلع لمرجعية إسلامية جديدة أن نلقى الضوء على كافة مقولات الإسلاميين ذات الوزن فى المجتمعات الإسلامية لدعم الإيجابيات وتجنب السلبيات.

أهم ما لحق بالتصوف من سلبيات

(أ) نزعة الاندماج فى خالق الوجود تأثرت بفلسفات هندية ويونانية ودفعت ببعض المدارس الصوفية نحو رؤى حلولية وتصورات تعتقد بوحدة الوجود.

(ب) شعبية التصوف جعلته أكثر ارتباطا برؤى التدين لدى الأوساط الشعبية وهى رؤى مستغرقة فى الغيبيات والعجائبيات.

(ج) صحب التصوف اهتمام بالنجاة الفردية على حساب الاهتمام بالإصلاح السياسى الاجتماعى ودفع استحقاقاته.

(د) فى كثير من الأحيان أدى التعايش مع المتغلبين إلى التخلى عن واجبات التحرير.

إن التصوف قوة حية فى المجتمعات الإسلامية ولا يرجى استنهاضها ما لم تحدث صحوة صوفية تعزز الإيجابيات وتتجاوز السلبيات.

إن للتصوف دورا هاما فى المجالات الآتية:

أولا: التركيز على رابطة المحبة بين الله والناس، وبين المؤمنين تركيز من شأنه أن يدعم التسامح وقبول الآخر.

ثانيا: إشباع الجوع الروحى والتربوى لدى الشباب لكيلا يقعون فريسة لتيارات الغلو التى تقودهم لاحتجاجات العنف العشوائى.

هذا النهج الإعلامى هو السبيل لإعلام مسترشد بهداية الإسلام منفتح لحضارة التصوف وقيم الجهاد لمواجهة الظلم والطغيان.

رابعا: الطرق الصوفية صالحة لدعم المجتمع المدنى والاهتمام بأنشطة اجتماعية خدمية فى التعليم والصحة وإغاثة المحتاجين.

خامسا: مثلما للتصوف دور هام فى دعم التسامح بين الفرق الإسلامية فإن له دورا هاما كذلك فى دعم التعايش والحوار بين الأديان.

الإعلام

الإعلام فى البلدان الإسلامية اليوم يعانى من حزمة عيوب. فالصدق وسائر مكارم الأخلاق قيم إسلامية ملزمة. كذلك احترام الرأى الآخر الذى تبرزه الشورى، ومنع الجهر بالسوء من القول، وإيجاب النصيحة للكافة.. الدين النصيحة لله ورسوله وللمؤمنين.

إن القيم الإعلامية الإسلامية من حيث الخبر الصادق، واحترام الرأى الآخر، والبحث عن المقولة الاجتهادية الجادة، والترفيه البرىء معلومة ولكنها غير مرعية فى غالبية البلاد الإسلامية.. إنها بلدان تعانى فى الغالب من إعلام موجه لدول مستبدة.

الصدق من أوائل ضحايا الاستبداد لأن الاستبداد يقوم على إدعاء كاذب، وعلى إنكار المثالب، وعلى تزييف الحقائق. والاستبداد يغيب الرأى الآخر عمدا لأنه يحرص على بث خط أحادى.

والعيب الثالث الذى يعانى منه الإعلام لدينا هو التناول النمطى السطحى للقضايا. الحرية، والتنافس بين الآراء هما شرطان واجبان للاجتهاد فإن غابا صار الاجتهاد عقيما.

والعيب الرابع فى الإعلام السائد حاليا هو كثرة البرامج الترفيهية الهابطة فى الأفلام والمسلسلات والأغانى.. إن كثيرا من أغانى الفيديو كليب السائدة فى الفضائيات الآن مشاهد تحرش جنسى.

ثالثا: النظرة المثالية والزهدية فى مباهج الدنيا أساس محمود للربط بين قيم الإعلام وأفقدته صدقيته . . وفى مجال صدق الخبر، واحترام الرأى الآخر، فإن البرامج الإعلامية جعلت وسائل الإعلام الأجنبية جاذبة . . حقا لا ينفذ العدو من حدودنا لكنه يدب كالنمل من عيوبنا .

وسائل الإعلام العالمية صارت تصل للمواطن فى كل مكان بأخبارها، وتحليلاتها، وتنوعها، وترفيهها، وتبث إعلاما ذا مستوى يحترم عقل المتلقى، ومهما كان فيه من غرض فإنه مخفى بصورة ذكية .

الإعلام الوطنى والإسلامى لا يعمل فى فراغ . . إنه يعمل فى تنافس مع إعلام عالمى رفيع المستوى والإمكانات فإذا هو تخلف عنه فإنه بالمقارنة يمنح الإعلام العالمى جدوى وفاعلية . كانت هذه المقارنة من أهم أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى بإعلامه الأحادى الممل أمام الآلية الإعلامية الغربية الباهرة .

إن على الإعلام الوطنى فى البلدان الإسلامية أن يحقق إصلاحا يحقق الآتى :

أ ـ تحرى الخبر الصادق الدقيق المستمد من شبكة مراسلين ومحررين قادرين على نقل المعلومة من كل مكان وفى كل مجال .

ب ـ أن يفسح الإعلام المجال واسعا للرأى والرأى الآخر .

جـ ـ أن يتناول القضايا المختلفة الفكرية والسياسية، والثقافية، والأدبية، والاقتصادية، والرياضية بدرجات رفيعة من الاجتهاد .

د ـ أن يهتم الإعلام كما ينبغى بالتوعية والخطاب الدينى متجنبا الانكفاء من ناحية والتبعية للوافد من الناحية الأخرى .

هـ ـ أن يعبر عن التنوع الفكرى والثقافى فى المجتمعات المعنية .

و ـ الترفيه من الضرورات الإنسانية . فالقلوب إذا ملت كلت، وإذا كلت عميت . . ينبغى أن يفسح الإعلام فى كافة مجالاته للترفيه كحاجة إنسانية متجنبا الإسفاف وتحرش الغرائز .

هذه العيوب الموجودة بدرجات متفاوتة فى الإعلام فى بلداننا أطاحت بقيمة هذا العصر الحديث قادر على حماية الذات الثقافى من الركون لمفاهيم ماضوية متحجرة أو الاستسلام للغزو الإعلامى الخارجى.

ختام

إن تحقيق العافية الإيمانية والفكرية والثقافية يبدأ باتخاذ الموقف الصحيح من هذه القضايا موقف له وفاء لما ينبغى له الوفاء من التأصيل وله مستقبل فى آفاق التحديث العولمة.

إن الدين ضرورة للإنسانية وكذلك التطور الفكرى والثقافى والاجتماعى. دين الإنسانية هو ذلك الذى يشبع ضرورات الإنسانية العشر المادية، الروحية، المعرفية، العاطفية، الأخلاقية، الجمالية، الفنية، الاجتماعية، البيئية والرياضية. ويقبل التعايش مع التعددية ويفسح المجال للتطور من داخل مبادئه وليس على حسابها.

***

الهوامش

١ـ أبو الأعلى المودودى (١٩٣٠- ١٩٧٩م): انظر هامش: ١٤ ـ المقدمة.

٢ـ البخارى (الإمام) (١٩٤- ٢٥٦هـ/ ٨٠٩- ٨٦٩م): انظر هامش: ٨ ـ المقدمة.

***